الناحية العلمية من إعجاز القرآن

للأستاذ محمد أحمد الغمراوى

(تتمة ما نشر فى العدد الماضى)

نعم ! إن الله منزل القرآن ينبئنا فى كتابه العزيز أن هناك أرضين أخرى مثل أرضنا . وفرق مابين الأرض والكواكب الأخرى أن على الأرض حياة ، وإلا فالأرض أيضاً كوكب سيار كغيره من السيارات .

وأول مانجد آيات فى سورة فصلت تتعلق بالموضوع : تلك الآيات هى :

« قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين وتجعلون له أنداداً ؟ ذلك رب العالمين . وجعل فيها رواسى من فوقها ، وبارك فيها ، وقدّر فيها أقواتها فى أربعة أيام ، سواء للسائلين.. ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض : ائتيا طوعاً أو كرهاً : قالتا أتينا طائعين . فقضاهن سبع سموات فى يومين ، وأوحى فى كل سماء أمرها ؛ وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ؛ ذلك تقدير العزيز العليم ! » .

هذه الآيات الكريمة الأربع فيها فنون من الإعجاز العلمى نكتفى منها بما يتصل مباشرة بالنقطة التى نحن بصدد بحثها . وأول ما نلاحظ من ذلك أن الآية الأولى نصٌّ فى صحة ما استنبطنا من أن العالم فى آية الفاتحة ليس هو مجرد عالم الإنس والجن ، أو عالم الحيوان والنبات ، ولكن هو العالم الفلكى الذى يتبادر إلى الذهن من اللفظ . ووجه كونه نصاً فى ذلك أن الآية والتى تليها تتناولان خلق الأرض على شطرين . ولما كان الشطر الثانى فى الآية الثانية متعلقاً بتطورات خلق الأرض الضرورية للحياة فيها فإن شطر خلقها فى الآية الأولى متعلق بتكوين أرضنا أول ما تكونت عند ميلادها ، وتكون خاتمة تلك الآية « ذلك رب العالمين » متعلقة على الأخص بالمعنى الفلكى الذى هو موضوع الآية . ومن لطيف ما ينبغى الانتباه إليه كمثل للاشارات القرآنية العلمية أن يومى الخلق المذكورين فى الآية الأولى داخلان طبعاً — فى الأربعة الأيام المذكورة فى الآية الثانية ، إشارة إلى أن طورى الخلق متداخلان كما هما فى الواقع . وهو مثل رائع للاعجاز فى الإيجاز

فاذا انتقلنا إلى الآية الثالثة وجدناها تنبئنا أن السماء عندما تم خلق الأرض كانت دخانا ، وأن السموات السبع لم يكنّ خلقن بعد ، بل كن كلهن سماء واحدة بدليل قوله تعالى فى الآية الرابعة : « فقضاهن سبع سموات فى يومين » . وإذن فقد كان هناك قبل خلق السموات السبع أرض واحدة ثم خلقها ، وسماء واحدة كانت دخانا . وهذا عجيب من أسرار خلق السموات والأرض لايعرف العلم منها إلى أن السماء كانت يوماً ما دخانا . ولا تزال كتل هائلة مما سماه الله دخاناً يشاهدها الفلكيون بمراقبهم القوية اليوم فى السماء وان تكتل داخلُ أكثرها نجوما ، ويسمونها سُدُماً ، ماتكتل منها وما لم يتكتل . وهذا مثل عجيب من الإعجاز العلمى للقرآن : هذه الدخانية التى كانت عليها السماء .

وواضح أن تخلق السماء إذ ذاك سموات سبعاً المشار إليه فى الآية الرابعة كان طاعة من السماء لنصيبها من الأمر : « ائتيا » إذن فما هو نصيب الأرض وقد قالتا « أتينا طائعين » ؟ هل الأرض فى قوله تعالى : « فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً » هى نفس الأرض التى نحن عليها ؟ إن الجواب المتبادر هو نعم . لكن القرائن تمنع من هذا المتبادر . وأول هذه القرائن وأهمها أن أرضنا هذه كان قد سبق تشكيلها ، وتم خلقها وخلق جبالها وخلق الحياة على ظهرها قبل أن يصدر الأمر ، بدليل « ثم » الترتيبية فى أول الآية الثالثة ، بعد تمام خبر خلق الأرض فى الآيتين الأوليين . والأمر أمر واحد : « ائتيا » ! فاذا كان أمرَ خلقٍ فيما يتعلق بالأرض المخاطبة . فهل يمكن أن تكون الأرض المخاطبة بذلك الأمر هى الأرض التى تم خلقها ؟ أليست هذه قرينة قوية جداً على أن الأرض فى الآية الثالثة غير الأرض فى الآية الأولى ، أى غير أرضنا هذه ؟ بلى ! وتكون أل للعهد فى الآية الأولى ، وللجنس فى الثالثة . فهل هناك قرائن أخرى على هذا الاستنتاج تؤيده وتزكيه ؟

إذا تذكرنا أن المقابلة تامة فى اللغة بين كلتى أرض وسماء ، وكذلك هى تامة فى الآيات الثلاث الأولى حين لم يكن إلا أرض واحدة وسماء واحدة ، كان فى ذلك إشارة مغنية إلى أن السبع السموات المذكورات فى الآية الرابعة يقتضى وجودهن وجودَ سبع أرضين يقمن بإزائهن : أرض تقابل كل سماء . ولما كانت إحداهن موجودة تامة الخلق بالفعل حين صدر الأمر ، كان المخاطب المعنى بالأمر فى « ائتيا » هو الأرضين الست الأخرى المقابلة للسموات الست الجديدة : خلقهن — سبحانه — كلهن من

السماء الدخانية الأولى . وتكون أل فى لفظ الأرض فى الآية الثالثة هى للجنس كما استنتجنا .

ويزداد هذا المعنى والتخريج تأييداً فوق تأييد ، وتوضيحاً فوق توضيح ، بالآية الأخيرة من سورة الطلاق « الله الذى خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن ، يتنزل الأمر بينهن ، لتعلموا أن الله على كل شيء قدير ، وأن الله قد أحاط بكل شيء علما . »

إن ال فى الارض هنا هى حتما للجنس لا للعهد ، بدليل قوله تعالى « مثلهن » . والسموات السبع متعددة ، ليس فى ذلك شك فلا بد أن تكون الأرضون السبع متعددة أيضاً على نفس النحو والنمط لتتحقق المثلية المنصوص عليها فى الآية ، لا أنهن سبع طبقات فى أرضنا هذه كما فهم الناس ويفهمون . فأرضنا واحدة وليس يفهم العلم ولا الناس من لفظ الأرض إذا أطلق إلا أرضنا هذه جملة ، بحذافيرها وطبقاتها كلها . فتفسير الأرضين السبع بطبقات سبع فى هذه الأرض تفسير لا يتفق مع اللغة ، ولا العلم ، ولا القرآن ، ولا مع الحديث الكريم « اللهم رب السموات السبع وما أظللن ، ورب الأرضين السبع وما أقللن » لمن يدقق فى تفهم الحديث وتوجيهه على المعنى المألوف .

هذه النتيجة التى تتفق مع حرفية القرآن وحمله على الحقيقة اللغويه لا على المجاز تحل لنا وللانسانية مشكلة السموات السبع حلا حاسما . فقد عجز الناس إلى الآن عن الوصول إلى فهم للسموات السبع ليس عليه اعتراض . قالوا إنها السيارات السبعة فظهر من السيارات عشرة ليس من بينها القمر كما كان يقول اليونان . وقالوا إنها سبعة عوالم فى السماء فكانوا كأن لم يقولوا شيئاً ، إذ ليس هناك ما يحدد معنى عوالمهم هذه ، والعوالم والأكوان أكثر من سبعة بكثير . لكن تعال الآن إلى المعنى القرآنى المتبين آنفاً ، وتذكر الإرتباط والمقابلة بين أرض وسماء فى اللغة لفظا ومعنى ، وطبق ما تفهم من السماء بالنسبة لهذه الأرض على كل أرض من الارضين الست الاخرى ، يتحدد معنى السماء وعددها بتحدد معنى الأرض وعددها ؛ أو إذا جئت المسألة من الطرف الآخر ، يتحدد معنى الأرض وعددها بتحدد معنى السماء وعددها . « الله الذى خلق سبع سموات ومن الارض مثلهن » ! سبع سموات وسبع أرضين ، كل أرض تحدد سماءها ! وأكبر الظن أن مرقب المائتى بوصة الجديد المنتظر إتمام صنعه قريبا سيكشف مع الزمن عن بعض هذه الارضين فتتجدد بذلك آيات أخرى من آيات إعجاز القرآن .

بقيت نقطة واحدة لعل من الخير استيفاءها . أخبرنا الحق سبحانه أن السموات السبع كن قبل سماء دخانية واحدة وهذه الأرض مخلوقة ، فهل أخبرنا سبحانه فى القرآن شيئاً عن هذه الأرض أين كانت قبل أن تخلق ؟ نعم . فى آية الأنبياء :

« أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما ؟ » ! وإذا تركنا المجاز ولزمنا الحقيقة اللغوية طبق قاعدتنا نتج حتما من هذه الآية الكريمة أن السموات والأرض كانتا شيئاً واحداً متصل الأجزاء . وهذه عجيبة كبرى من عجائب إعجاز القرآن العلمى يؤيد القرآن بها العلم الحديث فى قوله بأن الكون كله شيئاً منبتاً واحداً قبل أن توجد فيه أرض أو نجم أو سديم .

ونأمل ان شئت واعجب ماشئت من إعجاز القرآن فى التعبير عن هذا السر الحق الهائل فى الآية الكريمة آية الأنبياء ! تأمل كيف لم يسم ذلك الكون الرتق سماء إذ لم تكن أرض ، وإذ كانت السموات والأرضين شيئاً واحداً منبتاً لعله كان دون الدخان

لكننا نكتفى الآن بهذا القدر من الأمثال التوضيحية لما أشرنا اليه فى صدر هذا المقال .

إن فيها على الأقل ثلاث معجزات يقينية يستيقنها العلم الآن : تعدد العوالم فلكيا ؛ ودخانية السماء فى البدء ؛ وانفصال الأرض عن السماء بعد أن كانت متصلة بها اتصالا فى الأول .

وتبارك الله فاطر الفطرة ومنزل القرآن .

محمد أحمد الغمراوى

إدارة البلديات العامة

تقبل العطاءات بإدارة البلديات (بوستة قصر الدوبارة) لغاية ظهر يوم ٢٢ يناير سنة ١٩٤٧ عن توريد عربات رش وقامة مفرد للمجالس .

وتطلب الشروط والمواصفات الخاصة بذلك من الادارة على ورقة تمنة فئة الثلاثين مليما مقابل مبلغ ٢ جنيه للنسخة الواحدة عدا أجرة البريد . ٦٥٧٦